

وَالْعِلْمُ فِي الْكِبِيرِ أَيْضًا

البشير عصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإن العلم الشرعي النافع من أجل ما تستهلك الأعمار في طلبه، وتستنفذ الأوقات في ابتغائه، وحسبك بشيء اتفق العقلاء في هذه الأمة على فضلها وعلى التنفيذ من صده، واتحدت كلمتهم على الحث على تحمله وبشه بين عموم الناس. وما زاد عمرى انقضاء إلا ازدلت إلى العلم صبوة، وبعظيم نفعه تيقناً، وبخطر التفريط فيه اقتناعاً.

وما زلت أتعجب من يخوض غمار السياسة، أو يتقدم لحج الدعوة، أو يتحمل أمانة الحسبة، وهو خلو من العلم الشرعي النافع، أو بضاعته منه صبابة يسيرة لا تغنى شيئاً!

ولا ينقضي عجبي من يطلب الهدى في مضائق الفكر، ومتاهات العقول، من أساطين الفلسفة، ودهاقنة الفكر الغربي، والحال أن أكثر ما عندهم - وإن لروا به أشداقهم، وحبروا له ألفاظهم - موجود في أسفار العلوم الشرعية، بأبهى لفظ، وأجمل تعبير، مع السلامة من الانحراف والتحريف. ولكن ما أشبههم بالذى ينقب عن الدر في أصلاد الصخر، ونفائس الجوهر محشودة في جؤنته التي إلى جنبه.

كالعيسى في البداء يقتلها الظما :: والماء فوق ظهورها محمول!

وإذا كان العلم الشرعي بهذه المنزلة المنيفة، فقد اشتهر عند الناس أن طلبه إنما يكون في ميعدة الصبا، وحداثة السن.

ويررون في هذا المعنى حديثاً لفظه: "الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر". لكنه لا تصح نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما هو من كلام بعض السلف فيما يقول الحافظ ابن عبد البر. وورد بلفظ: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر"، قال عنه العجلوني: (رواه البيهقي عن الحسن البصري من قوله). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (هذا مثل سائر، ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم).

ولا يقنع بعضهم بمضمون هذه القولة المأثورة، حتى يزيد إليها ما يؤكّد معناها بذكر مقابله: "والحفظ في الكبر كالنقش على الماء"!

فوائد طلب العلم في الصغر

ولا يشك متبع عاقل في الفوائد العظيمة التي يجنيها الطالب، إذا هو شرع في طلب العلم في سن مبكرة، فإن التبكير في كل شيء مظنة الفلاح فيه، فكيف لا يكون ذلك في طلب العلم الشرعي؟ فمن الفوائد الجليلة:

- أن ذهن الصغير أنشط، وحافظته أوعى؛ فهو لذلك أكثر تأهلاً للكre من حياض العلم، والتزود من نبعها النمير.
- أن الشواغل الصرافية عن الجد، والعوائق المشتلة للذهن، أقل عند صغير السن، إن لم تكن منعدمة أصلًا.
- أن الصغير لا يستحيي من الجلوس في مجالس التعلم، ولا يقع في ذهنه تكبير عن الاستفادة والسؤال، خلافاً للكبار.
- أن الانشغال بطلب العلم منذ الصبا من أفضل أنواع النشأة في الطاعة، التي ورد في فضلها الوعد الغالي، في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله، إذ منهم: "شاب نشا في عبادة ربِّه". وهل من عبادة ينشغل بها الصغير -غير الواجبات العينية- هي أعظم نفعاً من طلب العلم الذي يضيء له درب الحياة، ويفتح له أبواب الرشاد؟

وقد تقطن أجدادنا إلى هذه الفوائد وغيرها، فكانوا يحرصون على إلحاق الأطفال بالكتاتيب والمدارس، في أصغر سن يقدرون فيه على الحضور، ويهتمون لإسماعهم الحديث والاستجازة لهم من كبار الحفاظ المعمرين، حرصاً على تحصيل علو الإسناد.

وكان أغلب ما يشتغل الأطفال به: القرآن الكريم حفظاً وتجويداً ورسماً وضبطاً وجمع قراءات، ثم متون العربية من نحو وصرف وبلاغة لغة، (وقد يبدأ ببعض علوم العربية مع القرآن أو قبله، لأنها آلة تحصيله)؛ ثم سائر متون العلم الشرعي النافع.

خطأ الإطلاق في موضع التقييد

إن ما سبق لنا ذكره عن فوائد التعلم في الصغر، يراد به على الخصوص: حث الأولياء على تعليم الأطفال، واغتنام أوقات صباحهم في تلقينهم النافع من علوم الشرعية.

لكن فهم بعض الناس من ذلك معنى آخر، لم يقصده سلفنا الصالح، وهو: تثبيط كبار السن عن التعلم، وحرمانهم من لذة الطلب، بدعوى أن ذلك لغيرهم لا لهم، وأما هم فقد فاتهم الركب، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، فليستكينوا إلى الدعة والراحة، فقد فاز المفردون السابقون إلى ذرى المعالي، حين كانوا هم في حمأة الغفلة، ومستنقع الوسن!

وقد بلغ الأمر درجاتاً فظيعاً من سوء الفهم، حتى لقد جاءني ذات يوم فتى يسألني قائلاً: "إن عمري خمسة عشر عاماً، وأريد الشروع في طلب العلم، فهل يمكنني ذلك أم أنني تأخرت؟"

فتعجبت من هذا الفهم السقيم، الذي لبس الشيطان به على بعض الناس، فصرفهم عن كثير من الخير!

وأذكر أنني حين شرعت في طلب العلم - وكان ذلك متأخراً نسبياً - كان معي أحد الإخوة، فامتنع عن البدء معي، متعللاً بكبر السن، وفوات الركب. مما استمعت لكلامه، ولا أقيت لرأيه بالاً. ثم مضت السنوات فندم على ذلك - فيما أحسب - أشد الندم، وهو الآن من يستفتيني في مسائل العلم المختلفة!

ولهذا أقول: إن قوله: "العلم في الصغر كالنقش على الحجر" حق في نفسه من جهة الأصل، ولكن لا ينبغي أن يستعمل في معنى باطل.



ومن أخطر المعاني الباطلة: أن بعض الناس يجعل هذه المقوله وأضارابها، شماعة يعلقون عليها تكاسلهم عن الحفظ، وقعودهم عن طلب العلم؛ بل يجعلهم اعتدادهم بها يائسين من التعلم مطلقاً!

وقد نقل البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمر رضي الله عنه قوله: "تفقهوا قبل أن تسودوا". أي: قبل أن يجعلكم قومكم سادة. وفي بعض روایات الجامع الصحيح: "قال أبو عبد الله -أبي البخاري-: وبعد أن تسودوا!".

يريد البخاري بذلك أن يصحح الفهم السيء لكلام الفاروق رضي الله عنه، كما قال الحافظ ابن حجر: "لبيين أن لا مفهوم له، خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه؛ وإنما أراد عمر أنها قد تكون سبباً للمنع لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين".

مزايا للكبير في باب طلب العلم

والحق أن الحفظ والتعلم ممكناً في كل مراحل العمر، بل قد يوجد في الكبر ما يجعل طلب العلم أسهل وأقوى.

فمن ذلك:

- أن كبير السن يعرف فضل طلب العلم، والأجر الجزيل الذي وعد الله به من يلتمس طريقاً إلى العلم؛ فدوافعه الباطنة قوية، والحافز النفسي عظيم. أما الطفل فالغالب أنه يطلب العلم مدفوعاً إليه من وليه، ترغيباً أو ترهيباً. فشتان ما بين الحالين!

- لل الكبير قدرات ذهنية متطرفة، تساعد على فهم الكلام بسرعة، وربطه في سياقه بما قبله وما بعده. ولا شك أن الفهم يساعد على الحفظ كثيراً.

- إذا كان الصغير قليل الهموم والصوارف النفسية، فإنه كثير الانشغال بأمور أخرى مثل اللهو مع أترابه، والالتزامات المدرسية التي تأكل الوقت أكلاً (وغالب الأطفال اليوم لا بد لهم من المدرسة). وهنالك مزايا أخرى، لا أطيل بذكرها.

وقد شرع كثير من العلماء في طلب العلم على كبر سنهم، يذكر أصحاب التراث منهم جماعة، من أشهرهم: ابن حزم الأندلسي، والقفالي المروزي. وقيل لهم كثير من الصحابة ما تعلموا إلا على كبر.

كما أن جماعة من العلماء قدموا أمثلة عالية جداً في الاستمرار على طلب العلم في كل مراحل العمر، منهم الإمام ابن مالك التحوي الشهير صاحب الألفية وغيرها من الكتب: حفظ في يوم وفاته خمسة شواهد شعرية. والإمام ابن هشام صاحب المصنفات النافعة، كان شافعياً ثم أصبح حنبلياً قبل وفاته بخمس سنين، وحفظ مختصر الخرقي في ستة أشهر!

وأعرف شيوخاً وعجائز أقبلوا على التعلم وحفظ القرآن بهمة عالية لا يملكونها أصحاب العشرين، فحققوا نتائج طيبة عالية.

فعليك بطلب العلم في كل حين، فإنك لا تدري في أي مراحل عمرك تكون البركة.
فإن قيل لك: كبرت سنك، وطلب العلم إنما يكون في الصغر!

فلتتجب: لأن ألقى الله طالباً للعلم خير من أن ألقاه زاهداً فيه، مع ما ورد فيه من الفضل!
ولأن أشغل أوقاتي بالعلم خير من أن أشغلها بما لا نفع يرجى منه.
والله الموفق.